من هو داود الأنطاكى

داود الأنطاكى هو داود بن عمر ولد فى أنطاكيه عام ٩٥٠ هجرية ، وقام برحلات إلى دمشق وغيرها من بلاد الشام ، ثم استقر به المقام فى القاهرة .. وكان منذ صغره شغوفا بالعلم محباً للقراءة .. ولم يكن همه القراءة لمجرد المعرفة فقط ، بل انه قرأ عملاً ينفع به .. وفى رحله المعرفة التى شملت الفلك والروحانيات وعلوم القرآن والبيطريات ، وغير ذلك من العلوم المختلفة . استأثر الطب باهتمام داود فأخذ من المراجع لاساطين الطب فى كل الامم ، وأكب على هذه الكنوز بنهم شديد، ثم بدأ بالقياس والتجربة حتى صار من أعظم حكماء عصره في علوم العطارة والصيدلة والعلاج.

ولم تكن تذكرة داود التى أسماها بتذكرة أولى الالباب – وهى التى نتناولها فى كتابنا هذا – هى الوحيدة التي أفرزها عقل داود الأنطاكى بل أن له كتباً أخرى ، منها : كتاب "البهجة والدره المنتخبة فيما صح من الأدوية المجربة" .. وكتاب "غاية المرام فى إصلاح الأبدان" .. الا أنه ودون شك .. فإن تذكرة أولى الالباب والمشهورة باسم تذكرة داود هى التى ذاعت شهرتها ويكاد يعرفها العامة والخاصة ...

أما التذكرة نفسها .. فهى كتاب ضخم ، يصل مجموع صفحاته إلى ٦٤٨ صفحة ، وقد قسمه داود إلى ثلاثة أجزاء كل منها عباره عن كتاب كامل .. وقد جعل من الجزء الاول تفصيلاً لعدد كبير يزيد على الثلاثة آلاف نبات وعشب ، مرتبة حسب الحروف الهجائية ، وخصص الجزءين التاليين للوصفات الطبية ، ومعالجة الأمراض المختلفه ، وهى أيضاً مقسمة تبعاً للحروف الهجائية.

وتحتوى التذكرة على مجموعه كبيرة من الرقى والتعاويذ والاحجبة ، هذا بجانب الأدعية المختلفة ، وتحتوى التذكرة كذلك ضمن ما تحتوى على أجزاء

مفصلة لعلوم الجغرافيا والهندسة والفلاحة وعلوم الفراسة والطب البيطرى ، وغير ذلك من علوم مختلفة لاتربطها والطب وشائج قربى .. هذا كله جنباً إلى جنب مع الوصفات الطبية ووصف لأعراض الأمراض المختلفة ..

ويقول داود إنه كتب تذكرته فى ربيع الآخر من شهور سنة ست وسبعين وتسعمائة من الهجرة .. أى إنه كتب التذكرة وعمره ٢٦ سنة .. اما عن كيفية جمع كل هذه الوصفات وخصائص النباتات والأعشاب التى جاءت بتذكرته فهو يقول عن هذه الخصائص والوصفات ..

"قد أتقن السلف رحمهم اللّه تعالى ذلك حتى وجدناه مهذباً مرتباً ، فنحن كالمقتبسين من تلك المصابيح والمغترفين من تلك البحور .. وأول من ألف شمل هذا النمط وبسط الناس فيه ما انبسط .. "ديسقريدوس" اليونانى فى كتابه الموسوم بالمقالات فى الحشائش ، ولكنه لم يذكرإلا الأقل حتى إنه أغفل ما كثر تداوله وامتلىء الكون بوجوده كالكمون وغيره .. ثم "روفس" فكان ما ذكره قريباً من كلام الأول ، ثم "قوليس" فاقتصر على ما يقع فى الأكحال خاصه على أنه أخل بمعظمها كاللؤلؤ .. ثم "أندروماخس" الأصغر فذكر مفردات الترياق الكبير فقط ، ثم رأس البغل الملقب ب "جالينوس" وهو غير الطبيب المشهور ، فجمع كثيراً من المفردات ولكنه لم يذكر إلا المنافع خاصة دون باقى الأحوال ، ولم أعرف من الروم مؤلفاً غير هؤلاء ، ثم انتقلت الصناعة إلى إيدى النصارى ، فأول من هذب المفردات اليونانية ونقلها إلى اللسان السريانى "دويدرس البابلى" ولم يزد على ما ذكروه شيئاً حتى أتى الفاضل المعرب والكامل المجرب "إسحق ابن حنين النيسابورى" فعرب اليونانيات والسريانيات ، وأضاف اليها مصطلح الأقباط لانه أخذ العلم عن حكماء مصر وأنطاكية وأستخرج مضار الأدوية ومصطلحاتها ، ثم تلاه ولده "حنين" ففضل الأدوية من الأغذية فقط ، ولم أعلم من النصاري من أفرد غير هؤلاء .. ثم انتقلت الصناعة (الطب) إلى الإسلام .

وأول واضع لهذه الكتب من هذا القسم الأمام محمد بن زكريا الرازى ، ثم مولانا الفرد الأكمل والمتبحر الافضل الأمثل الحسين بن عبد الله بن سينا رئيس الحكماء ، فضلاً عن الأطباء ، فوضع الكتاب الثانى من القانون ، وهو

أول من مهد لكل مفرد سبعة أشياء وأخلى بالأغلب ،اما لاشتغال باله ، أو لعدم مساعدة الزمان له ، ثم ترادف المصنفون على أختلاف أحوالهم فوضعوا فى هذا الفن كتباً كثيرة ،من أجلّها مفردات ابن الأشعث ، وإبى حنيفه ، والشريف ، وابن الجزار ، والصائغ ، وجرجس بن يوحنا، وأمين الدوله ، وابن التلميذ ، وابن البيطار ، وصاحب ما لا يسع ، وأجل هؤلاء الكتب الكتاب الموسوم ،بمنهاج البيان صناعة الطبيب الفاضل يحيى بن جزله – رحمه اللّه تعالى ، فقد جمع المهم من قسمى الإفراد والتركيب فى ألطف قالب وأحسن ترتيب ، وأظن أن أخر من وضع فى هذا الفن الحاذق الفاضل محمد بن على الصورى .. وكل من هؤلاء لم يخل كتابه مع ما فيه من الفوائد عن إخلال بالجليل من المقاصد ، أما ببدل ، او إصلاح ، أو تقدير ، أو إطلاق للمنفعة وشرطها التقييد ككى الثآليل (السنط) بعود التين ، والشرط أن يكون ذكراً .. ولقد ترجمنا – يقول داود – هؤلاء مع غيرهم من الحكماء فى طبقاتنا ، وذكرنا ما أشتملت عليه كتبهم ونحن ذاكرون إن شاء اللّه في هذا الباب ، والذى يليه ما أغفله أهل هذه الصناعه وما حدث من الأدوية والتجارب لهم ولنا إلى يومنا هذا ، وهو مفتتح ربيع الآخر من شهور سنة ست وسبعين وتسعمائة من الهجرة .."

إذن .. فداود أخذ من كتب الاطباء الذين سبقوه سواء كانوا عرباناً أو أعجاماً .. وهو يقول فى موضع آخر من التذكرة .. "إنا ننتخب لب كتب تزيد على مائة فى الاقربازينات ، وهو علم الادوية والعقاقير" .. فهو إذن قد طالع كتب السالفين من الأطباء ، واختار منها ما صدق نفعه منها ، وثبتت فائدته ، وهو فى هذا يرجع إلى الأصل فى كل العلوم .. إلى التجربة .. فإذا جاءت النتيجة صادقة مع ما جاء بالوصفه ، فهي اذن نافعة لعلاج هذا الداء..

وليس داود بالطبيب الذى يأخذ الوصفه كما هي ، فيعمد إلى تجربتها على المرضى ويترك للقدر وللمصير أمر نجاحها أو فشلها ، بل يفسر ويحلل الوصفة ليرى مدى فاعليتها فى الشفاء .. فنراه يقول .. "إذا جهلنا مزاج مفرد – دواء – وضعنا منه قدراً معيناً فى القرعة – جفنة أو إناء صغير – وركبنا عليه الأنبيق – أنبوب للتبخيد – واستقطرناه فيسيل منه بالضرورة جزء مائع ، وجزء زبدى ، ويتخلف آخر ويصعد آخر" .. ثم يقول بناءً على نظرية المكونات

الاساسية الاربعة للموجودات ، وهى الماء والنار والهواء والتراب ، وهى النظرية التى كانت سائدة قديماً .. يقول .. "فالماء والزبد الهواء ، والصاعد النار والثابت التراب قياساً على العناصر فيتضح مزاج المفرد – الدواء – أى فاعليته وقوته على الشفاء"..

كما فلنا آنفاً – فداود أخذ من كتب السابقين عدداً كبيراً من الوصفات الطبية ، وكانت أهم الكتب الطبية التى استقى من مصادرها أجزاء تذكرته .. "القانون فى الطب" للشيخ ابن سينا .. وكتاب "العقاقير البسيطة" لجالينوس .. وكتاب "كناشه الطب" للراهب السكندري أهرون .. وكتاب "الحاوى" و "الاقربازين" لابى بكر الرازى .. و "الجامع لمفرادات الأدوية والأغذية" لابن البيطار والادوية المفردة" للخافقى .. وغير ذلك من الكتب ، التى كانت تحوى بين دفتيها بجانب ذكر الأدوية والعقاقير وطريقة تركيب الوصفات من الأعشاب والنباتات . كانت تحوى – كما ذكرنا ذلك – على روحانيات وأحكام الجان وتعاويذ ورقى واحجبة ، وبخور ، وتأثير البروج المختلفة على الأمراض ، ولم يترك داود ذلك كله دون أن يأخذ منه ويضمه إلى تذكرته الطبية .. بيد أن الحكيم داود لم يتوقف عند هذا الحد ، فقد قام بصنع عديد من الوصفات وجربها فى شفاء بعض الأمراض ، وأتت بنتائج باهرة ؛ فضمها إلى تذكرته القيمة ، والحقيقة أن ذلك يدعونا إلى السؤال عن ما هية الطرق التي استطاع بها داود وغيره من الأطباء وضع كل هذا العدد من الوصفات .. ؟ ؟

يقول داود إن معرفة سر هذه الوصفات وخصائص الاعشاب وفوائدها يعود إلى ثلاثة أشياء .. أولها .. الوحى .. فقد نزل بعضها على الأنبياء .. وعند الحكماء ن أول من أوصى اليه بها – بفوائد الاعشاب والنباتات – "هرمس المثلث" واسمه فى التوراه "أخنوخ" وفى العربية "النبى إدريس" وسمى بالمثلث لانه جمع بين النبوة والحكمة والملك .. وعند الكلدانيين أن آدم عليه السلام تقدم ببعض الفوائد والوصفات الطبية ، وأن القمر – كما جاء بكتب الكلدانيين – كان يخاطبه بفوائد النبات والحيوان .. وان "ثيا" والمعروف عندهم بآدم الثانى ادخرها في هياكل من النحاس ، حين رأى الطوفان ودفنها بالجبل المعلق ، وأن إدريس رادها بسطا ، أي أنه أضاف اليها وشرح بعضها وبسطه .. ومن

هؤلاء الأنبياء سليمان عليه السلام وقد أوحى الله إليه بغالب العقاقير ، أى معظمها وأخذها عنه سقراط .. وقد صح عن نبينا عليه الصلاة والسالم الاخبار بذلك من طرق عديدة ، من الوحى والإلهام والمنامات ، وقد حصل بهما شيء كثير من الأدوية للمتأهلين من الحكماء ، بل والأطباء..

أما الأمر الثانى لمعرفة سر الوصفات وفوائد النباتات فهو التجربة وشرطها النتيجة ، والصحة مرة بعد ؛ أى إن تجربة العقار أو الوصفة تجرب المرة بعد الأخرى ، فإذا ثبتت صحتها فى تحصيل الشفاء فهى وصفة صحيحة .. ويقول داود إن ألتجربة نوعان ، نوع مطلق وفيه لا تتقيد الوصفة بشروط بل تأتى حصادها بالشفاء لنفسها دون أي قيد ، والنوع الثانى من التجربة وهو الخاص وتكون الوصفة مقيدة بشروط لا تأتى بالشفاء ، إلا في تحقيق هذه الشروط وانسجامها مع الوصفة نفسها..

أما الأمر الثالث فى معرفة فوائد النبات والإطلاع على سر ، الوصفات الطبية .. فهو القياس .. وقانون العمل به أن الطبيب ينظر فيما ثبت نفعه لمرض ما أو لشيء ، ويعرف طعمه و رائحته ولونه وسائر أعراضه اللازمة ، ثم يلحق به كل ما شاكله فى ذلك ؛ أي أنه يختبر الأعشاب والنباتات المختلفة ، فإذا جاء أحدهم مماثلا لعشبة أو نبات .. كان قد ثبت فعله الشفائى لمرض .. فإن هذا العشب يضاف فى .. الفعل إلى مثيله ، وهذا هو القياس ، وهو دون شك يعتمد على الأمرين الأوليين ..أى الوحى والتجربة.